

إن الكتابة هي منفذ يُستخدم لتخليصنا من تلك المشاعر التي تشوّش عقولنا وتمنعنا من تجربة السلام والتوازن. وفي بعض الأحيان، يمكن لما تم كتابته أن يمنح القراء غذاء للتفكير ويساعد على توقع المستقبل.

عكس الحرب - تحقيق ذلك.

طوال أيام وأسابيع وشهور، كانت حياتنا اليومية تتخللها قوائم بأرقام مخيفة، من خلال منحنيات تقارن بين سرعات التلوث، وصور رهيبية لمناطق تم تحويلها إلى مستشفيات حرب. وإن تلك الصور هي أسوأ لأنها كانت، ومنذ وقت ليس ببعيد، أماكن حياتنا ورموز التجارة الدولية وحركة الناس التي ميزت عصرنا حتى ذلك الحين. إن هذه هي بالفعل الحياة اليومية للسكان الذين يعيشون حالة حرب: من ناحية عدد الضحايا وسرعة تطور العدو والتغيرات الجذرية في الحياة والعادات وتغيير طرق استخدام الأشياء من أجل الاستجابة بشكل أفضل لمتطلبات الوضع.

الحرب: قصة في طور التكوين

نحن في حالة حرب. وهذه الحرب التي نخوضها هي أول حرب عالمية حقيقية، وأول حرب عالمية. وللمرة الأولى في تاريخ البشرية، نحن متحدون، كيان واحد، ضد خصم مشترك. إن هذا العدو الماروغ غير المرئي ليس لديه عاطفة ولا وجه ولا مشاعر ولا أخلاق. وللوهلة الأولى، فيسكون من الممكن استيعاب ذلك الأمر للأعداء الذين كنا نواجههم منذ بداية الإنسانية ... إذا كان لنا أن نتخيل رسومات كهوف لاسكو، فما هو نوع الرسومات التي سنتمكن من تركها وراءنا بعد هذه الحرب المأساوية (التي بدأت للتو)؟ ما الذي يمكن أن نتركه ليراه أحفادنا؟ ما هي الضمانات التي يمكن تركها للحرب التي نخوضها؟

ومع ذلك، ومهما كان العدو الذي نحاربه، فإن المبادئ الثابتة التي تحكم مسار الحرب هي نفسها دائماً. إن أحد تلك المبادئ يتعلق بالرأي، والذي يُعرف باسم التواصل والدعاية والنقاش العام ... إنه الخطاب الإيجابي للجانب الذي ننتمي إليه، والخطاب الذي ينصّ على الانتصار القادم، ما الذي سيجعلنا منتصرين، وما الذي سيوحدنا. لقد قال نابليون في هذا الصدد بأنه "في نهاية المعركة الضائعة، فإن الفرق بين الفائز والخاسر ضئيل"، مما يعني بأن كل من يدعي النصر أولاً سيكون هو الفائز.

قصتنا الحالية: كوفيد-19 في المقدمة

ومع ذلك، ففي الوقت الحالي، يجب القول بأن عدونا ينتصر. ويعود ذلك لسبب بسيط وهو أننا استسلمنا له في الحرب والدعاية. ودون الحاجة له بأن يقوم بالترويج لنفسه، فنحن من قمنا بذلك. لكن هل كان لدينا خيار؟ لقد فاجأنا هذه الحرب بشكل كبير، ومن الواضح بأنه وفي الوقت الحاضر، فقد استحوذت علينا ردة الفعل الغريزية المليئة بالذعر، فنحن نبحث باستمرار عن مؤشرات يمكن أن تقودنا إلى الاعتقاد بأن الحرب على وشك الانتهاء، وبأن هذا الوضع الجديد لحياتنا وبلداننا والعالم سينتهي قريباً. ومع ذلك، فإن تلك المؤشرات والصور لهذه الحرب الصحية المستمرة لا تُمكننا حتى الآن ولا تنتج التأثير الضروري والحيوي من أجل تعزيز الشجاعة والقوة التي يتوقعها المرء من الدعاية الحربية، بل أنها تُعزز الجو القتال الذي يُمكن أن يتسبب في أضرار نفسية و يُثير تداعيات سلبية على المستقبل.

وعلاوة على ذلك، سيتعين علينا قياس العواقب الحقيقية في وقت قريب جداً، فقد بدأت هذه الحرب للتو وحياتنا الإنسانية الجديدة في العالم في عام 2020 هي حالة من الحبس والإغلاق. لقد قيل لنا بأن عالمنا يسير في طريق مسدود حتى إشعار آخر. ويقول لنا معظم الخبراء وعلماء الفايروسات وعلماء الأوبئة والأشخاص "الذين يعرفون ما الذي يتحدثون عنه" بأنه من أجل السيطرة على هذا الوباء وحتى لا يكون بمثابة وباء خطير، فإن الأمر سيستغرق ما لا يقل عن عامين.

هل يعني ذلك بأن العامين القادمين سيتمثلان في الحجر وإغلاق الحدود؟ لا نستطيع قول ذلك حتى الآن. على أية حال، فإن ما يجب فهمه وقوله هو أن حياتنا، ومنطق تدخلاتنا في العالم، والأنظمة التي نعيش فيها والتوازنات بين الأنظمة التي كانت موجودة حتى ذلك الحين، جميعها لديها احتمال كبير جداً للتغيير. سنؤدي هذه الحرب، مثل أي حرب، إلى حدوث تحوّل كبير في المجتمعات والاقتصادات، وبالطبع السياسة. وإن المعركة الصحية التي تدور اليوم ليست سوى المرحلة الأولى من هذه الحرب الكونية العالمية التي أثارها هذا الفايروس.

قصة للبناء عليها: التحوّل الكبير

لقد حان الوقت بالنسبة لنا لعكس الدعاية، ولتغيير رواية هذه الحرب. إن أول شيء يجب القيام به هو البدء من فرضية أن وضعنا الجديد هو الواقع الذي نعيشه. يجب أن لا نؤمن بعد الآن بأن هذه هي حالة استثنائية وبأن الأحداث ستُستأنف نتيجة لتلك الأزمة. يجب علينا أن ندرك الواقع والتحوّلات العميقة الجارية.

كيف يمكن التأكيد بمثل هذا اليقين على أن التغييرات العميقة جارية؟ ببساطة لأن تلك التغييرات قد كانت موجودة بالفعل، ومن المحتمل بأن تكون هذه الأزمة بمثابة اكتشاف لحجم تلك التغييرات. ومن بين الأمثلة البسيطة هو مدى الانقسام في وجه الثورة الرقمية و عبر الإنترنت اليوم. إن العالمين يشهدان الآن وبطرق مختلفة للغاية نتائج تلك الأزمة وهذا الإغلاق وتلك

هذه القيود المعقدة. أولئك الذين احتضنوا العالم الرقمي وإزالة الطابع المادي وأولئك الذين لم يقوموا بذلك. ويمكن تحليل هذا التمييز على المستوى العالمي (الدول والمؤسسات والشركات والمالية العامة والإدارات) وعلى المستوى الفردي (البشر داخل نفس المجتمع). وأخيراً، تجري هناك إعادة تشكيل لفصل جديد بين الإيلوي والمورلوك (وهي أجناس بشرية من محض الخيال) بشكل غير مرئي، والتي حددها هيربرت جورج ويلز في روايته رداً على الشعور بوجود شروخ اجتماعية وأنثروبولوجية التي شعر بأنها تنشأ بين المستبدين والمُختارين خلال الثورة الصناعية الثانية ...

تواجه تونس الآن أزمة اقتصادية واجتماعية كبيرة في المستقبل التي ستكون مدمرة وستترك عدداً كبيراً من أولئك الذين كانوا بالفعل الأكثر هشاشة وأقل استقراراً والذين كان بقائهم يرجع فقط إلى بعض الجهود من أجل الحفاظ على الهياكل الاقتصادية التي لم تكن قائمة على الحاجة أكثر من بقائهم (وذلك بثمن باهظ بسبب الضعف المتزايد والمستمر للدولة ومؤسساتها). إن الأزمة القادمة ستأتي بسرعة وستؤثر على جميع أولئك الذين لا يمكن تحويل مهنتهم وأعمالهم وأنشطتهم إلى عالم الرقمنة. وعلاوة على ذلك، تُثبت أزمة القيادة التي نمر بها (ونحن لسنا الوحيدين في ذلك) بأن هياكل الحوكمة قد عفا عليها الزمن. عندما نضيف تلك العوامل معاً ونشهد حيوية المجتمع المدني والقوة المحتملة للثروات الخاصة عند اقتراح مشاريع حقيقية لهم، فمن السهل استعادة الأمل والاعتقاد بأنه إذا ما فهم قادتنا بأن مسألة بقاء العالم هي على المحك ووافقوا على المبادرات، فيمكننا إيجاد حلول مبتكرة لنعود أقوى كمجتمع، وذلك من خلال هيكله أنفسنا حول "علم النفس" هذا. أليس ذلك هو كل ما تعنيه تلك الأزمات - تطهير ما كان من المفترض تطهيره وتقوية الأنظمة التي تمكنت من النجاة منها؟